

## تفسير البغوي

79 - { فتولى } أعرض صالح { عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصح لكم ولكن لا تحبون الناصحين } فإن قيل : كيف خاطبهم بقوله لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصح لكم بعدما هلكوا بالرجفة ؟ .

قيل : كما [ خاطب النبي A الكفار من قتلى بجر حين ألقاهم في القليب فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آباءائهم : أيسركم أنكم أطعتم الله رسوله فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها ؟ فقال النبي A : ( والذي نفس محمد بيده ) ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون ] .

وقيل : خاطبهم ليكون عبرة لمن خلفهم .

وقيل : في الآية تقديم وتأخير تقديرها : فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى فأخذتهم الرجفة .

وكان قصة ثمود على ما ذكره محمد بن أساحاق و وهب وغيرهما : أن عادا هلكت وانقضى أمرها عمرت ثمود بعدها واستخلفوا في الأرض فدخلوا فيها وكثروا وعمروا حتى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فينهم والرجل حي فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا وكانوا في سعة من معاشهم فعتوا وأفسدوا في الأرض وعبدوا غير الله فبعثه الله إليهم غلاما شابا وفدعاهم إلى الله حتى شطب وكبر لا يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون فلما ألح عليهم صالح بالدعاة والتبلیغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سأله أن يريهم آيه تكون مصداقا لما يقول فقال لهم : أي آية تريدون ؟ قالوا : تخرج معنا غدا إلى عيادنا وكان لهم عيد يخرجون فيه بأصنامهم في يوم معلوم من السنة فتدعوا الله وندعوا آلهتنا فإن استجب لك اتبعناك وإن استجب لنا اتبعتنا فقال لهم صالح : نعم فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم وخرج صالح معهم فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعوه ثم قال جندع بن عمرو بن حواس وهو يومئذ سيد ثمود : يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة - لمخرة منفرده في ناحية من الحجر يقال لها الكاثبة - ناقة مختربة جوفاء وبراء عشراء - والخترحة ما شاكل اليخت من الإبل - فإن فعلت صدقناك وآمنا بك فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لتصدقني ولتؤمن بي قالوا : نعم فصلى صالح ركتين ودعا ربه فتمخصت الصخرة تمخص النتوج بولدها ثم تحركت الهضبة فانصدع عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها عظما إلا الله وهم ينظرون ثم نتجت سقيا مثلها في العظم فآمن به جندع بن عمرو ورهط من قومه وأراد أشراف ثمود أن

يؤمنوا به ويصدقونه فنهاهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد الحباب صاحب أوثا منهم ورباب بن صمفر وكان كاهنهم وكأنوا من أشراف ثمود .

فلما خرجت الناقة قال لهم صالح : هذه ناقة أَلْ لها شرب ولكم شرب يوم معلوم فمكثت الناقة ومعها سقيها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء فكانت ترد الماء غبا فإذا كان يومها وضع رأسها في بئر في الحجر يقال لها بئر الناقة فما ترفر رأسها حتى تشرب كل ماء فيها فلا تدع قطرة ثم ترفع رأسها فتنفسخ حتى تفجح لهم فيحلبون ما شاؤوا من لبن فيشربون ويدخرون حتى يملأوا أوابائهم كلها ثم تصدر من غير الفج الذي وردد منه لا تقدر على أن تصدر من حيث ترد يضيق عنها حتى إذا كان الغد كان يومهم فيشربون ما شاؤوا من الماء ويدخرون ما شاؤوا ليوم الناقة فهم من ذلك في سعة ودعة وكانت الناقة تصيف إذا كان الهر بظهر الوادي فتهرب منها المواشي أغناهم وبقرهم وإبلهم فتهبط إلى بطن الوادي في حره وجده وتشتو ببطن الوادي إذا كان الشتاء فتهرب مواشיהם إلى ( بطن ) الوادي في البرد والجدب فأضر ذلك مواشיהם للباء والاختبار فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم وحملهم ذلك على عقر الناقة فأجمعوا على عقرها .

وكانت امرأتان من ثمود إحداهما يقال لها عنيزه بنت غنم بن مجلز تكوني بأم غنم وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت عجوزاً مسنة وكانت ذات بنات حسان وذات مال من إبل وبقر وغنم وامرأة أخرى يقال لها صدوف بنت المحيا وكانت جميلة غنية ذات مواشي كثيرة وكانت تحبان عقر الناقة ( لما أضرت ) بهما من مواشيهما فتحيلتا في عقر الناقة فدعت صدوف رجلاً من ثمود يقال له الحباب لعقر الناقة وعرضت عليه نفسها إن هو فعل فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال له مصعب بن مهرج بن المحيا وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة وكانت من أحسن الناس وأكثرهم مالاً فأجا بها إلى ذلك ودعت عنيزه بنت غنم قدار بن سالف وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً يزعمون أنه كان لزانياً ولم يكن لسالف ولكنه ولد على فراش سالف فقالت : أعطيك أي بنتي شئت على أن تعقر الناقة وكان قدار عزيزاً منيعاً في قومه .

أخبرنا عبد الواحد المليحي أن أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا وهيب حدثنا هشام عن أبيه أنه أخبره عبد الله بن زمعه [ أنه سمع النبي A يخطب وذكر الناقة والذي عقرها فقال رسول الله A : { إِذَا نَبَّعْتُ أَشْقَاهَا } ( الشمس - 12 ) انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في قومه مثل أبي زمعه ] .

رجعنا إلى القصة قالوا : فانطلق قدار بن سالف ومصعب بن مهرج فاستغوا غواة ثمود فاتبعهم سبعة نفر فكانوا تسعه رهط فانطلق قدار وصدع وأصحابهما فرصدوا الناقة حين صدرت الماء وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصعب في طريق آخر فمرت على مصعب فرمادها بسهم فانتظم به في عضلة ساقها وخرجت بنت غنم عنيزه وأمرت ابنتها وكانت من

أحسن الناس فأسفرت لقدر لقدر ثم ذمرته فشد على الناقة بالسيف فكشفت عرقوبها فخرت ورغت رغاة واحدة تحذر سقبها ثم طعن في لبتها فنحرها وخرج أهل البلدة واقتسموا لحمها وطبخوه فلما رأى سقبها ذلك انطلق حتى أتى جبلا منيفا يقال له : صنو وقيل : اسمه قارة وأتى صالح فقيل له : أدرك الناقة فقد عقرت فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه : يا نبي إنا عقرها فلان ولا ذنب لنا فقال صالح : انظروا هل تدركون فصيلها فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب فخرجوا يطلبونه فلما رأوه على جبل ذهبوا ليأخذوه فأوحى الله تعالى إلى الجبل فتطاول في السماء حتى ما تناله الطير .

وجاء صالح فلما رآه الفضيل بكى حتى سالت دموعه ثم رغا ثلثا وانفجرت الصخرة فدخلها فقال صالح لكل رغوة أجل يوم فتمنعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب . وقال ابن إسحاق : اتبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع بن مهرج وأخوه ذاب بن مهرج فرمي مصدع بسهم فانتظم قلبه ثم جر برجله فأنزله فألقوا لحمه مر لحم أمه وقال لهم صالح : انتهكم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله ونقمته قالوا لهم يهزؤون به : ومنى ذلك يا صالح ؟ وما آية ذلك ؟ كانوا يسمون الأيام فيهم : الأحد أول والاثنين أهون والثلاثاء دبار والأربعاء جبار والخميس مؤنس والجمعة العروبة والسبت شيار وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء فقال لهم صالح حين ذلك : تصبحون غداة يوم مؤنس وجوهكم مصفرة ثم تصبحون يوم العروبة وجوهكم محمرة ثم تصبحون يوم شiar وجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب يوم أول .

فلما قال لهم صالح ذلك قال التسعة الذين عقروا الناقة : هلم فلنقتل صالحا فإن كان صادقا عجلناه قبلنا وإن كان كاذبا قد كنا أحقناه بناقته فأتوه ليلاً ليبيتوه في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطئوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ثم هموا به فقاموا بشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبدا فقد وعدكم أن العذاب نازل بكم بعد ثلاث فإن كان صادقا لم تزدوا ربكم عليكم إلا غضبا وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم فأصبحوا يوم الخميس وجوههم مصفرة كما أنها طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأناثهم فأيقنوا بالعذاب وعرفوا أن صالح قد صدقهم فطلبوه ليقتلوه وخرج صالح هاربا منهم حتى لجأ إلى بطن من ثمود يقال لهمبني غنم فنزل على سيدهم رجل يقال له نفيل ويكتنى بأبي هدب وهو مشرك فغيبه ولم يقدروا عليه فغدوا على أصحاب صالح يعتذبونهم ليدلوك عليهم فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم : يا نبي إنا لهم ليعذبوننا لندلهم عليك أفندلهم ؟ قال : نعم فدلهم عليه وأتوا أبا هدب فكلموه في ذلك فقال : نعم عندي صالح ولهم لكم عليه سبيل فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم عنه ما أنزل الله بهم من عذاب فجعل بعضهم

يخبر بعضا بما يرون في وجوهم فما أمسوا صاحوا بأجمعهم : ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب فما أصبحوا اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار فصاحوا جميا : ألا قد حضركم العذاب .

فلما كان ليلة الأحد خرج صالح من بين أظهرهم ومن أسلم معه إلى الشام فنزل رملة فلسطين فلما أصبح القوم تكفنوا وتحنطوا وألقوا أنفسهم إلى الأرض يقلبون أبصارهم إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة لا يدرؤون من أين يأتيهم العذاب فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل ساعة وصوت كل شئ له صوت في الأرض فقطعت قلوبهم في صدورهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا هلك كما قال الله تعالى : { فأصبحوا في دارهم جاثمين } إلا جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت سالف وكانت كافرة شديدة الكفر والعداوة لصالح فأطلق الله رجليها بعدها عاينت العذاب فخرجت كأسع ما يرى شئ قط حتى أتت قرن وهو واد القرى فأخبرتهم بما عاينته من العذاب وما أصاب ثمود ثم استقت من الماء فسقيت فلما شربت ما تناولت .

وذكر السدي في عقر الناقة وجها آخر قال : فأوحى الله تعالى إلى صالح عليه السلام . أن قومك سيعقرنون ناقتك فقال لهم ذلك فقالوا : ما كنا لنفعل : فقال صالح : إنه يولد في شهركم هذا غلام يعقرها فيكون هلاككم على يديه فقالوا : لا يولد لنا ولد في هذا الشهر إلا قتلناه قال : فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم ثم ولد للعاشر فأبي أن يذبح ابنه وكان لم يولد له قبل ذلك هذا فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أولادهم فتقاسموا به لنبأته وأهله قالوا : نخرج ليري الناس أنا قد خرجننا إلى سفر فنأتي الغر فنكون فيه حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه ثم رجعنا إلى الغار فكنا فيه فانصرفنا إلى رحلنا فقلنا : ما شهدنا مهلك أهله وإنما تصادقون فيصدقوننا يطعون أنا قد خرجننا إلى سفر وكان صالح لا ينام معهم في القرية وكان يبيت في مسجد يقال له مسجد صالح فإذا أصبح أتاهم فوعظهم وذكرهم وإذا أمسى خرج إلى المسجد فيبات فيه فانطلقوا فدخلوا الغار فسقط عليهم الغار فقتلهم فانطلق رجال من قد اطلع على ذلك منهم فإذا هم رضخ فرجعوا يصيرون في القرية : أي عباد الله ما رضي صالح أن أمرهم بقتل أولادهم حتى قتلهم فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة .

وقال ابن إسحاق : كان تقاسم التسعة على تبييت صالح بعد عقرهم الناقة كما ذكرنا . قال السدي وغيره : فلما ولد ابن العاشر يعني : قدار شب في اليوم شباب غيره في الجمعة وشب في شهر شباب غيره في السنة فلماكبر جلس من أناس يصيرون من الشراب فأرادوا ماء يمزجون به شرابهم وكان ذلك اليوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة فاشتد ذلك عليهم وقالوا : ما نصنع نحن باللبن ؟ لو كنا نأخذ هذا الماء الذي تشربه الناقة فنسقيه

أنعامنا وحرثنا كان خيرا لنا فقال ابن العاشر : هل لكم في أن أعقرها لكم ؟ قالوا :  
نعم فعثروا .

أخبرنا عبد الواحد الملحيي أباًنا عبد الله النعيمي أباًنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن مسكين ثنا يحيى بن حسان بن حيان أبو زكرياء ثنا سليمان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر : [ أن رسول الله لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئر بها ولا يستقوا منها فقالوا : قد عجنا منها واستقينا فأمرهم أن يطروا ذلك العجين وبهريقوا ذلك الماء ] وقال ابن نافع عن ابن عمر : [ فأمرهم رسول الله أن يهريقوا ما استقوا من آبارها وأن يعلفو الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة ] .

وروى أبو الزبير عن جابر قال : لما مر رسول الله بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه : لا يدخلن أحد منكم القرية ولا تشربوا من ما ظهر لهم ولا تدخلوا على هؤلاء المعدبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيّبكم مثل ما أصابهم ثم قال : أما بعد فلا تسألوا رسولكم الآيات هؤلاء قوم صالح سأّلوا رسولهم فبعث الله الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج وتشرب ماءهم يوم ورودها وأراهم مرتفع الفضيل من القارة فعتوا عن أمر ربهم وعثروا فأهلك الله تعالى من تحت أديم السماء منهم في مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلا واحدا يقال له أبو رغال وهو أبو ثقيف كان في حرم الله فمنعه حرم الله من عذاب الله فلما خرج أصحابه ما أصاب قومه فدفن ودفن معه غصن من ذهب وأراهم قبر أبي رغال فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم وفجروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن .

وكانت الفرقـة المؤمنـة من قـوم صالح أربـعة آلـاف خـرج بهـم صالح إلـى حـضرـمـوت فـلـما دـخلـوـها مـات صالح فـسمـي حـضرـمـوت ثـم بـنـى الأـربـعة آلـاف مدـيـنة يـقال لـهـا حـاصـورـاء قـال قـومـ من أـهـلـ الـعـلـم تـوفـي صالح بمـكة وـهـو ابن ثـمان وـخمـسـين سـنـة وأـقـامـ فـي قـومـه عـشـرين سـنـة